خطبة صلاة الجمعة 16/ 10/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(زاد المسافر–5)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: 28].

روى الإمام مسلم وغيره عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«إن الله زَوَى لِي الأرضَ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإنَّ أُمَّتي سيبلغ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها»**.

وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: **«والله لأن يهديَ اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم»**.

عنوان خطبة اليوم (**زاد المسافر –5**)

أيها الإخوة:

– من أكثر من مائة ألف صحابي حضروا حجة الوداع مع النبي صلى الله عليه وسلم، لم يدفن في المدينة المنورة منهم إلا عشرة آلاف، فأين ذهب الباقون؟

لقد فهموا معاني الشهادة ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَاسِ﴾ [البقرة: 143]، ومعنى تبليغ الرسالة «**بلغوا عني ولو آية**»، ومعنى الأمر الإلهي في الدعوة إلى الإسلام ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِكَ﴾ [النحل: 125]، فانطلقوا في الآفاق ينشرون دعوة الله ويبلغونها للعالمين.

– أكثر من ثمانين بالمئة من المسلمين اليوم ليسوا من العرب، فمن الذي حمل لهؤلاء الدِّين من مكة والمدينة وطار به إلى أندونيسيا والصين والهند شرقاً وفرنسا وبريطانيا وكندا غرباً؟.

إن أجدادك قد فعلوا ذلك عندما فهموا قول الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33] فذهبوا إلى تلك البلاد تجاراً وصنَّاعاً وفاتحين، والآن جاء دوري ودورك.

إن الدعوة إلى الإسلام هي مسؤولية المسلمين، وسيسألهم الله عنها يوم القيامة: هل بلَّغتم رسالتي ؟ ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6].

في المكتبات كتابٌ غزير الفائدة عنوانه: (**الدَّعوة إلى الإسلام**)، هو عبارة عن بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، مؤلِّفه (السير توماس أرنولد) أستاذٌ سابقٌ في جامعة لندن، وهو من وفيات (1930م)، متقن لمعظم اللُّغات الأوربية بالإضافة إلى العربية والفارسية، له عشرات المؤلفات يتحدث كتاب (الدَّعوة إلى الإسلام) المؤلَّفُ من خمسمائة صحيفة عن جهود الدُّعاة المسلمين في نشر الدَّعوة الإسلامية في أرجاء المعمورة، في آسيا الغربية وفي أفريقيا وإسبانيا، وبين الشُّعوب الأوربية، ثمَّ في الهند والصِّين، ويؤكد بالأدلة التَّطبيقية ويأتي بنماذج عملية أنَّها كانت دعوةً قائمةً على اللُّطف والفَهم وحُسن التَّعامل، بعيدةً عن الإكراه والقهر، واللَّافت في كثيرٍ ممَّا ذكره الكتاب أنَّ دعاة الإسلام كانوا من الشباب التُّجَّار والعُمَّال والصُنَّاع، فضلاً عن الشُّيوخ والعلماء، ويَذكر الكتاب قصصاً ووقائع تدلُّ على ذلك.

يقول المؤلّف –ص445–: (إنَّ النَجاح الرَّائع في الدَّعوة إلى الإسلام في جزر الهند الشَّرقية هو الذي أحرزه التُّجار بنوعٍ خاص، إذ كسبوا السَّبيل إلى قلوب الأهالي بتعلُّم لغتهم، والتَّخلُّق بأخلاق الإسلام، وأخذوا في رفقٍ وتدرُّجٍ ينشرون معارف دينهم، فبدؤوا يحولون الأشخاص الذين ارتبطوا معهم بعلاقة تجارية إلى الإسلام، واستخدموا كلَّ ما يملكون للقيام بأعمال دلالة النَّاس على الله وعلى الإسلام، ومهما ردَّد الباحثون القول: (كلّ مسلم داعية إلى دينه) يبقى هذا القول حقيقياً، ومن ثمَّ نجد

إلى جانب أرباب الدَّعوة المحترفين سجلاً بأسماء رجالٍ ونساء من جميع طبقات المجتمع، من المِلك إلى الفلاح، ومن كلِّ الصَّنائع والحرف، قاموا بأعمالٍ ابتغاء نشر دينهم.

ونجد في كتاب يتضمن أسماء دعاةٍ في الهند أسماءَ معلِّمي مدارسٍ، وكتَّابٍ للحكومة، وتجّارٍ، ومحرري إحدى الصُّحف، ومجلِّدي كتب، وعاملٍ في مطبعة...، خصص هؤلاء أوقاتاً للدَّعوة إلى دينهم في الطُّرقات، وفي أسواق الهند العامَّة، وحتَّى المسلم الأسير يغتنم فرصاً في المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه في الأسر يدعوهم إلى الإسلام وإلى التَّوبة، واسمعوا إلى هذه القصة العجيبة:

في عهد الإمبراطور جهان جير (1605-1628م) كان هناك عالمٌ مسلمٌ يدعى الشَّيخ أحمد مجدِّد، سُجِن ظلماً بتهمةٍ تافهة، وخلال السَّنتين اللَّتين قضاهما في السِّجن أَدخلَ في الإسلام عدَّة مئات من عَبَدَة الأوثان الذين كانوا يرافقونه في السِّجن نفسه).

يقول المؤلّف -ص461-: (إنَّ من الظُّروف التي ساعدت على نجاح الدَّعوة إلى الإسلام أنَّ هذه الدَّعوة كانت إلى حدٍ كبير في أيدي التُّجار، وخاصةً في أفريقيا، ونرى خبرة التاجر بالنَّاس والأخلاق وحنكته التِّجارية في معاملة النَّاس تُنِيلانه قبولاً حسناً، ثمَّ إنَّ الشَّعب الإفريقي الذي كان التَّاجر المسلم يتحمَّل أعباء السَّفر الطَّويل لأجل أن يصل إليه ثمَّ يرى هذا التَّاجر يطرح مشاغله الدُّنيوية جانباً ثمَّ يقوم بعمل الدَّعوة إلى الله، كان يرى هذا الأمر أمراً غامضاً لا يستطيع تفسيره إلا بصدق هذه الدَّعوة وبصدق حاملها).

أيها الإخوة:

شاءت الأقدار أن يسافر عدد من أبنائنا وإخواننا إلى بلاد لم يعرفوها وأراضٍ لم يألفوها، ولئن كنا ندعو الله لهم بالحفظ والسلامة والمعونة فإننا نرجو منهم أن يكونوا عوناً لنا في تبليغ رسالة الله تعالى للعالمين، وسفرهم وإن يكن محنة فبإمكانهم أن يجعلوه منحة، إن خدموا دين الله وبلغوا رسالته.

وإني لأذكر كتاباً نُشر في نهاية القرن الماضي عنوانه: (**أولياء الشرق البعيد**) للدكتور بشار الجعفري يتحدث عن دخول الإسلام إندونيسية بشكل خاص وجنوب شرق آسيا بشكل عام عن طريق التجار العرب والدعاة والزهاد والرحالة والفارين من البطش السياسي.

وتذكروا أيها الإخوة أن الجمهورية الإندونيسية اليوم تشمل نحو سبعة عشر ألف جزيرة تمتد بين استراليا وآسية، وتقارب مساحتها مليوني كيلو متر، ونسبة المسلمين فيها يزيد على أربع وتسعين بالمئة.

يتحدث الكتاب فيما يزيد على أربعمائة وخمسين صحيفة عن يوميات الدعوة إلى الله تعالى عند هؤلاء المسافرين من بلادهم إلى تلك البقاع.

إذ حمل هؤلاء المسافرون همَّ الدعوة إلى الله فشاركوا السكان الأصليين أفراحهم وأتراحهم وأعمالهم ومسؤولياتهم ولكنهم ماتخلّوا عن عقيدتهم وشريعتهم بل حملوا الآخرين عليها وبلغوها لهم في أدب وإنصاف، فأحبهم السكان الأصليون وأحبوا دينهم ومن ثم دخلوا في دين الله أفواجاً.

واليوم يراسلني أخ غادرنا إلى السويد ليرسل لي مقطعاً من خطبة جمعة ألقاها في المسجد هنالك لما رأوه على علم ببعض علوم الشريعة والقوم محتاجون لها، ويكاتبني طبيب بأنه يفيد من المحاضرات والخطب في موقعي الالكتروني ليلقي على الناس دروساً ومحاضرات في بولونيا، ويخبرني تاجر شاب مسافر أنه أسلم على يديه اثنين خلال خمسة أشهر مضت.

يقول الداعية الهندي المعروف أحمد ديدات:

(إن كل أمة تتوق إلى أن تكون حرة ومحترمة ومشرفة وأن تحيا في سلام و كرامة، وهذا هو أعلى مطلب لكل فرد، ولا يمكن تحقيق هذه الغايات في أمة يعتدي أفرادها بانتظام على أجسامهم بشرب الخمر و تعاطى المخدرات ويغتصبون نساءهم ويسلبونهن شرفهن وعفتهن التي هي تاج فضيلتهن (كالمجتمع الغربي), و لكي تكون الأمة حرة و محترمة و مشرفة حقًا فعليها أن تتألف من أفراد لهم هدف و عقيدة, أفراد على استعداد للالتزام الكامل بهذه العقيدة وذلك الهدف، وتلك الأهداف يمكن تحقيقها فقط إذا حفظت العقول والأجسام طاهرة و نقية, و للإسلام عقيدة فريدة تكشف الطريق لكل أولئك الذين يتوقون إلى السلام و الشرف و الحرية.

فالإسلام دين الحق و العدل, دين الرحمة و السلام , انتشر في أرجاء المعمورة بوسطيته وسماحته لا بالسيف كما ادعى المبطلون، ولئن قلنا إنه انتشر بالسيف، فهو سيف العقل ! كما قال كارليل).

أيها الإخوة:

ولئن كان هناك مَنْ يقول: إن السفرَ والغربة مظنةُ الفساد, فإن القارىءَ لسنة النبي صلى الله عليه وسلم يرى أن السفرَ مظنَّةُ الصلاحِ والرشاد ومظنة الدعوة إلى الله.

فحسبُكَ أن تَطَّلع على الأدعية التي علَّمها النبي صلى الله عليه وسلم للمسافر والمغترب –والدعاءُ إنما هو اتصالٌ مع الله– لتعلمَ الصلةَ القوية بين المسافر وربه.

وقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«ثلاثُ دعوات مستجاباتٌ لا شك فيهن: دعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر، ودعوةُ الوالد على ولده»** [الترمذي وأبو داود].

فما استجيبت دعوةُ المسافر والمغترب إلا لقربه من الله, وشدة حاجته واضطراره وانكساره.

ويكفي المسافرَ والمغترب شرفاً وقرباً من الله أن الله مصاحِبٌ له في سفره، كان من دعاءه صلى الله عليه وسلم إذا أراد السفر: «**اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البِرَّ والتقوى, ومن العملِ ما ترضى, اللهم هَوِّنْ علينا سفرنا هذا, واطْوِ عنا بُعْدَه، اللهم أنت الصاحبُ في السفر, والخليفة في المال والأهل...**» [مسلم].

فالسفرُ والاغتراب مظنةُ الرشاد لا الفساد، والطاعةُ لا المعصية، والالتزامُ لا التفَلُّت، والدعوة إلى الله والإسلام.

وإن الذين يسافرون ويغتربون فيرتكبون في بلاد الغربة المعاصي، ويجارون السكان الأصليين في منكراتهم ما راقبوا الله في أعمالهم ولا فهموا عن الله أوامره.

وختاماً: أقدم للإخوة الذين سافروا والأخوات سبع نقاط تعينهم على الدَّعوة إلى الإسلام وهم في سفرهم:

- النُّقطة الأولى: أحسِن تعاملك مع النَّاس.

- النُّقطة الثَّانية: حافظ على فرائض الإسلام وآدابه، حافظ على طهارتك ووضوئك، حافظ على صلاتك وصومك، حافظي على حجابك وغض بصرك لأنَّ انضباطك بالفرائض يدعو الآخرين للإعجاب بهذه المبادئ ثمَّ متابعتك بها.

يقول السير توماس أرنولد: (إن منظر التَّاجر المسلم في صلاته وسجداته الكثيرة وعبادته للإله الذي لا يَراه في سكينةٍ واستغراق يؤثر في الإفريقي الوثني).

وينقل المؤلّف كلمات عن أُسقفٍ مشهور يقول: (ما من فردٍ يتصل بالمسلمين لأوَّل مرة إلا أُخِذ بمظهر دينهم هذا، وحيث ما يمكن أن توجد: في الطُّرق العامة، أو في السِّكك الحديدية، أو في الحقل...، فإنَّ من أكثر الأشياء شيوعاً أن ترى الرَّجل منهم يترك في اللَّحظةِ التي يقوم فيها بأداء أعماله كلِّها بدون أي تأثرٍ بالرِّياء أو الظُّهور لكي يؤدي صلواته في أوقاته المحدَّدة).

- النُّقطة الثَّالثة: احتفظ بكتبٍ شرعيةٍ علميةٍ نافعةٍ، أو أقراص لدروسٍ ومحاضراتٍ مؤثِّرة لعلماء موثوقين، وقدمها هديةً لبعض من حولك.

- النُّقطة الرَّابعة: لا تُكرِه أحداً على الاقتناع بما تعتقده، بل ألقِ بذارك الجيدة ودعها، واعلم أنَّها ستنبت يوماً ما.

- النُّقطة الخامسة: ابتسم وألقِ التحية على مَن عرفتَ ومَن لم تعرف، وكن متواضعاً مؤدَّباً، فهذه السُّلوكيات تَلفِتُ الآخرين لمبدئك.

– النُّقطة السَّادسة: اعلم أنَّك سفير للإسلام، وحجَّةٌ له أو عليه، فراقب أقوالك وأفعالك أنْ تتوافق مع دينك.

– النُّقطة السَّابعة: شارك بوقتك ومالك وجاهك في التواصل مع الجاليات والمراكز الإسلامية.

وختاماً:

نقول لمن سافر من أهل هذه البلدة: نستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم عملكم، زودكم الله التقوى وغفر ذنبكم، وعجَّل للشام بالفرج وجعله محفوفاً بلطفه.

والحمد لله رب العالمين